مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص 854-866

موقف الأمير عبد القادر من فتنة الشّام وأثرها في الأدب العربي الحديث -دراسة في العلاقات النصّية -

Emir Abdelkader 's position on the strife of Sham and its impact on modern literature A study in textual relations

نجاة بوقزولة*

كلّية الآداب واللّغات جامعة أمحمّد بوقرّة بومرداس (الجزائر)

n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2022/12/ 30

تاريخ القبول: 2023/05/18

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الأمير عبد القادر
- ✓ فتنة الشام
- ✓ العلاقات النصية

الملخص:

يعدّ الأمير شخصية متفردة ما يزال مقصد كثير من المهتمين والباحثين الذين قرأوا عن هذا البطل الفذّ، وعرفوا أنّ خلف انتصاراته العسكرية وبطولاته،وفكره المتقد ،شخصية رحيمة بالضّعفاء والمقهورين، جسّدتها مواقفه الإنسانية العديدة منها إنقاذه لأهل الذّمة من النّصارى في دمشق (منفاه)أثناء الفتنة التي حدثت عام 1860م ،فكان هذا الحدث تتويجا لمواقفه النّبيلة المثيرة للدّهشة والإعجاب والتي فعلت فعلها في الأدب وتمازجت معه واخترقت نسيج نصوصه،فقد تأثر الكتّاب والشّعراء بهذا الموقف النّبيل وألفينا قصائد ورسائل وخطب ومقدّمات نثرية كلّها تشيد بفعله هذا وإحسانه الذي امتدّ صداه إلى العالم، كما تجلّت كذلك هذه الحادثة في رسائل الأمير في حدّ ذاته وخطبه ، ونروم من خلال بحثنا هذا مقاربة بعضا من تلك النّصوص الأدبية التي تأثّرت بهذا الموقف الإنساني، للكشف عن الأبعاد الإنسانية والحضارية والجمالية الثّاوية في هذه النّصوص في تفاعلها مع مواقف الأمير عبد القادر الجزائري وفي تفاعل هذه النّصوص بعضها مع بعض.

Article info

Received 30/12/2022

Accepted 18/05/2023

Abstract :

Al Emir is considered as a unique personality who is still the destination of many interested ones and researchers who have read about this feat hero, as they knew that behind his military victories and heroics, his brilliant thought and

*المؤلف المرسل

unique genius, as well as his personality that is merciful to the weak and the oppressed, embodied in his humanitarian situations. In adddition to his rescue of the dhimmis from the Christians in Damascus (exile) during the sedition that occurred in 1860. It is the culmination of his surprising and admirable noble atittudes , which have done their work in literature, blended with it, and penetrated the fabric of its texts. Writers and poets were affected by this noble stance, as we wrote poems, letters, speeches, and prose introductions that praise his deed and his benevolence, which spread to the world. Furthermore, this incident was evident in the letters of Al Emir and his speeches. Through our research, we aim to approach some of those literary texts that were affected by this human attitude, to identify the underlying human, civilizational and aesthetic dimensions in these texts in their interaction with the positions of Emir Abdelkader Al-Jazaery and in the interaction of these texts with each other.

Keywords:
- ✓ *Prince Abdul Qadir*
- ✓ *Al-Sham sedition*
- ✓ *Text relationships*

. مقدمة:

لقد خلّد الأمير صفحات بيضاء في مجال حقوق الإنسان بأفعال ومواقف قلّ مثيلها في زمنه، تناقلتها الكتب التي عنت بحياته وسيرته ،وعدّته من أبرز المواقف التي جسّدت إنسانية البطل الجزائري خلال فتنة الشام 1860م وهو ينقذ النصارى من القتل والتنكيل، ويعزّي الأرامل والثّكالى ،ويخفّف من أوجاعهم ويهوّن من مصابهم، فأعطى بذلك دروسا في سماحةالإسلام، وأكدّ بتجربته المتفرّدة انسجام أفعاله المنجزة في الواقع مع ما آمن به من مبادئ ،وتمثّله من قيم ، استمدّها بالأساس من ديننا الحنيف وسنّة نبيّنا الكريم،فإلى جانب الدّور الرّيادي في سنّ قوانين لحماية الأسرى زمن جهاده ضدّ المحتلّ، كان دفاعه عن أهل الذّمة في دمشق (منفاه)تتويجا لمواقفه النّبيلة المثيرة للدّهشة والإعجاب ،وقد تأثر الكتّاب والشّعراء بهذا الحدث من ثمّ ألفينا قصائد ورسائل وكتابات نثرية كلّها تشيد بفعل الأمير وإحسانه الذي امتدّ صداه للعالم ،كما تجلّت كذلك هذه المواقف في رسائله هو وخطبه ،والتي سنتخيّر بعضا منها لنقوم بمقاربتها في هذا المقال كما سنقوم بعرض بعض النّماذج الشّعرية التي تفاعلت مع موقف الأمير وأشادت بمناقبه ثمّ نقارب إحدى القصائد-التي تأثّرت بهذا الموقف الإنساني الأثير لعبد القادر -وهي قصيدة بديعة **للشّاعر أمين** الجندي (مفتي ديار دمشق) امتزجت فيها عاطفة الإعجاب والتّبجيل بعاطفة. الامتنان والاعتراف بجميل صنيع الأمير ،خاصّة وأنّه من أهل الشّام الذين شهدوا الحادثة فعبّرعن ذلك الموقف في زمن حدوثه،ونحن نروم من مقاربة هذه النّماذج اكتشاف الأبعاد الإنسانية والحضارية والجمالية الثّاوية في هذه النّصوص في تفاعلها مع مواقف الأمير عبد القادر الجزائري وفي تفاعل هذه النّصوص بعضها مع بعض.

2.تجلّيات الفتنة في رسائل الأميروخطبه:

لقد خلّف الأمير نصوصا خالدة(رسائل وخطب) ترجمت بحقّ موقفه من الأزمة و أظهرت جهوده التي بذلها في محاولة الحؤول دون وقوع الفتنة والتّقليل من حدّتها بعدما وقعت، وقد اخترنا رسالة بعث بها إلى بعض الأعيان عندما سمع أن الدّروز تنوي الهجوم على حيّ النصارى ،لسببين : أوّلا لتقاطعها مع ما جاء في النصّ الشّعري الذي سنقاربه ،وبالتّالي تأكيد تلك المعاني التي ربما جاءت مجملة ففصلتها هذه الرسائل والخطب ،وثانيا وهو الأهمّ لما فيها من قيم حضارية ومعرفية وإنسانية جليلة نستحضرها لنحيي تراثنا المضيء ونتأمّل في كنوزه ونستخلص منه العبر ونستخرج السّنن المعرفي والقيمي الذي أسهم في بناء شخصية الأمير الفاعلة والمتفاعلة مع عصره الذي كان يموج بالأحداث والصّراعات _وما تزال آثارها ممتدّة إلى يومنا هذا _ونقف بدءا عند رسالته الجماعية إلى شيوخ ووجهاء الدّروز يدعوهم فيها إلى تفادي تلك النّكبة كما بعث بها إلى علماء حمص

وحماه لدرء الفتنة قبل وقوعها جاء فيها :«.....إلى شيوخ الدّروز في جبل لبنان وفي سهول حوران إنّنا دائما ندعوا لكم بالسّعادة الدّائمة والهناء المستمر ..

إنّكم تدركون صداقتنا لكم واهتمامنا بالصّالح العامّ لجميع عباد الله، فاصغوا إلى ما نقوله لكم واقبلوه واعتبروا بنصيحتنا إليكم، إنّ الحكومة التركية وكلّ الناس يعرفون عداوتكم القديمة نحو مسيحي جبل لبنان، وقد تتصوّرون بأنّ الحكومة لن تحمّلكم كلّ مسؤولية الحرب التي تدور الآن بينكم وبينهم، وقد تقبل الحكومة عذركم، ولكنّكم إذا قمتم بهجوم على مكان لم يكن سكّانه في يوم من الأيّام أعداء لكم ، فإننّا نخشى أن يكون هذا التصرّف سببا في قطيعة خطيرة بينكم وبين الحكومة إنّكم تعلمون كم نحن نتمنّى الخير والسعادة لكم ولجميع سكّان بلادكم، إنّ الحكيم هو الذي يقرأ العواقب قبل أن يخطوا خطوة في الطريق.

إنّ بعض فرسانكم قد قاموا بالنّهب في ضواحي دمشق، وإنّ مثل هذا السلوك غير جدير بقوم تميّزوا بشعورهم الخيّر وسياستهم الحكيمة، إننا نكرّر لكم بأنا نسعى لخيركم، وإنّنا نتألم لأيّ خدش يصيب اسمكم". عبد القادر بن محي الدين ماي 1860.(شارل ، 1974، صفحة 282).

إنّ هذه الرسالة ترتكز في بنائها على حجج وبراهين قوامها العدل والحكمة، وهي تنهض بوظيفتين الأولى: النّصح والإرشاد والثّانية: التّحذير ،وهذا مايجعلها تتناسب والسّياق التّاريخي الذي كتبت فيه والموقف الذي عبّرت عنه، وتتجاوزهما في الوقت ذاته ،من حيث حملت بين جنباتها رؤية استشرافية ميّزتها وطبعتها بطابع الخلود والفاعلية، وجعلتها صالحة لكلّ زمن تتكرّر معه نماذج بشرية متربّصة بالإخلال بناموس الحياة وتتعارض مع الطّبيعة البشرية، التي وجدت لتتعايش وتبني وفق قانون ربّاني يحكمها وينظّم العلاقات فيما بينها ،فقد جاءت هذه الرّسالة، رافضة تشجب الظّلم وتنهى عن تربّص الإنسان بأخيه الإنسان جورا ،بغضّ النّظر عن عقيدته وملّته، حيث عمد الأمير إلى استمالة المرسل إليهم(رسالة جماعية)، مظهرا لهم ما يلزمه واجب الأخوّة والصّداقة الذي دعاه إلى تذكيرهم بخطورة ما هم فيه من غلوّ وجرأة على أهل الذّمّة، بالإضافة إلى اهتمامه بالصالح العامّ وتمنيّ الخير والسّعادة لجميع عباد الله بغض النظر عن عقيدتهم ما داموا مواطنين يخضعون للدّولة العليّة .

ثمّ انبرى يبيّن لشيوخ الدّروز أنّ تلك الأفعال الشنيعة إنّما هي مشينة في حق صاحبها، بقدر الأذى الذي قد تلحقه بالآخرين، فإن كان عدوانهم وبغيهم يتهدّد أرواح النصارى، فإنّ أذيّتهم تنزع من فاعلها إنسانيته، لأنّ الظّلم مشين في حقّ صاحبه أوّلا، ثمّ راح يذكّرهم بما يمكن أن يلحق دينهم الذي منه يستمدون أفعالهم من اتهام، فيكونون بذلك قد ألحقوا ضررا كبيرا بأنفسهم أكثر ممّا قد ألحقوه بغيرهم .

والرّسالة واضحة لا غموض فيها استخدم الأمير فيها ألفاظا سهلة قريبة المثال، بعيدة المنال، تخلّلتها بعض عبارات اللّين والملاطفة هي أقرب إلى الرّجاء-وفق ما اقتضاه السّياق - (الصّداقة ،الأخوّة ،السّعادة ...)،والتي عبّرت عن عاطفة الأخوّة التي يكنّها الأمير لأهل الشّام الذين أحبّهم وأحبوه فشرح بذلك أسباب موقفه هذا وهي إرادة الخير ومحبّته للجميع (الدّروز والنصارى من أهل الذمّة على السّواء)، من ثمّ يمكن القول أنّ أسلوب الرّسالة كان منسجما مع الغرض من وراء كتابتها حيث عمد إلى استثارة الجانب الإنساني عند شّيوخ الدّروز ،وعاطفتهم الدّينية ،فجاءت الرّسالة مقنعة مؤثّرة بما امتلك صاحبها من أسباب البيان و"إنّ من البيان لسحرا" ،وبما تهيّأ له من قدرة على تقديم الحجج والتّأثير بها في مخاطبه ،والتي جاءت متنوّعة بعضها يستثير جانب القيم والمبادئ والشّرف ؛حين نبّه إلى أنّ تلك التّجاوزات قد تؤدّي إلى الحطّ من مكانتهم في المجتمع الشّامي، وفي المجتمع الإنساني ككلّ،وبعضها له علاقة بالجانب السّياسي، فالأمر يهدّد وحدة الأمّة وأمنها ويؤثّر لا محالة على النّسيج الجمعي للمجتمع، حين وجّه خطابه للشّيوخ وعلية القوم -لما لهم من سلطة عرفية وكلمة مسموعة - على ثني الغوغاء

عمّا هم فيه من ظلم وعدوان وإلحاق الضرر بالمسيحيين، وبعضها يخاطب العقل والمنطق، حين بصّرهم بالقصاص الذي ينتظرهم من الحكومة لعلّ ذلك يخوّفهم ويردعهم مظهرا لهم أنّ مثل هذه الأفعال اللّاإنسانية،قد تترتّب عنها عواقب وخيمة تؤدّي إلى شرخ وتصدّع في العلاقة بينهم وبين الباب العالي، فيتّهمون وينتهي بهم الأمر مبعدين وقد يحكم عليهم ويقتصّ منهم،وهذا ماحدث بالفعل فيما بعد وتحقّق على أرض الواقع، ممّا يؤكّد لنا قيمة هذه النّصوص والرّسائل التي كتبها الأمير وسبب تعاليها عن النّسيان مع تقادم الزّمن، لما تميّزت بهمن بيان زادها سحرا وتأثيرا حين صوّرت الحقّ حقّا، وكذا ما انطوت عليه من رؤية استشرافية –كما أسلفنا -تؤكّد قدرة الأمير على التّعامل مع الأوضاع المستعصية بحنكة وذكاء منقطعيّ النّظير .

وإلى جانب هذه الرّسالة وغيرها- ممّا لا يتّسع المقام لذكرها جميعا -هناك خطب أيضا قام بها الأمير متعلّقةبالفتنة منها خطبته في دمشق،التي خطبها قبل الفتنة مباشرة؛إذ مع ورود الأنباء عن قرب وقوع الهجوم على النّصارى، جمع الأمير العلماء والوجهاء والأعيان من أهل دمشق وخاطبهم لإقناعهم بالعدول عمّا هم مقبلون عليه، وسنورد من خطبته هذا المقطع _تجنّبا للإطالة _فحسبنا تقديم نماذج تظهر تجلّي الحادثة في نصوص متنوعة من أدبنا الحديث، وتبيّن موقف الأمير وتشرح دوافعه، وأهمّ الحجج التي ارتكز عليها والوسائل التي توسّل بها في مهمّته،ومّما جاء في خطبته قوله : " ...إنّ الأديان وفي مقدمتّها الدّين الإسلامي أجلّ وأقدس من أن تكون خنجر جهالة ،أو معول طيش ،أو صرخات نذالة تدّوي بها أفواه الحثالة من القوم ،أحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا أو أن يكون له إلى أنفسكم سبيلا....»(أباظة، 1994، صفحة 16)، هذه الخطبة لا تخرج عن السّياق الدّلالي للرّسالة،ونظر التغيّر الوسائط التّعبيرية_ ممّا ينتج عنه بالضّرورة تغيير الخصائص الفنّية تبعا لاختلاف الجنسين _فإنّ الخطبة قد سيقت بأسلوب واضح أيضا، لكن بألفاظ جزلة و عبارات قويّة،دلّت على أنّ الأمير صاحب بيان لايشقّ له غبار في مجال اللّغة، لكأنّه وليد خباء لم يطأ الحضر ولم يعرف المدر–على حدّ تعبير الصاحب بن عباد - وهو الذي طاف الأرض شرقا وغربا، كما دلّت هذه اللّغة على حيازته ملكة إبداعية مكّنته من إتيان مختلف الأجناس الأدبية أنّى شاء ، فكانت براعته التّعبيرية وسيلة من وسائل الإقناع في ذاتها،وإذا كانت الرّسالة قد صاحبتها بعض عبارات الودّ–كما ألمحنا سابقا-بما تفرضه طبيعة الجنس الأدبي الذي عبّر به عن موقفه الاستباقي للفتنة،فإنّ الخطبة قد خلت أو تكاد من هذه العبارات،ليس وحسب استجابة للضّرورات الفنّية التي يقتضيها كلّ جنس، بل لتغيّر زمن وسياق كلّ منهما، فإذا كانت الرّسالة قد كتبت قبل بدء الفتنة بفترة تسمح بالتّراجع عن القيام بالهجوم،فإنّ الخطبة قد قيلت في سياق كانت نيران الفتنة قد بدأت تتصاعد وتشتدّ؛أي عشيّة وقوع الحادثة،لذلك كانت لغة الخطبة تعلوها مسحة من التّهديد والوعيد، حيث رفض الأمير أيّ محاولة لممارسة العنف باسم الدّين،مندّدا بإعلان الحرب على المسيحيين من أهل الذّمّة في أرض لبنان باسم الإسلام، والذي يتهدّد أهل دمشق بالضّرورة، فالدّين لا ينتج التطرّف والعنف، بل إنّ الجهل بالدّين هو ما ينتج التطّرف والكراهية، وعبارة "أحذّركم "قد حملت معها إلى المتظاهرين إعلاما بالاستعداد للتصدّي لأيّ عدوان على أهل الذّمة وأظهرت بوضوح موقف الأمير دون مواربة أو مداهنة.

و إذا وضعنا الخطبة جنبا إلى جنب مع الرّسالة،فإننا ندرك أنّ خطاب العقل و الإنسانية لا يتعارض مع خطاب القوّة والإصرار على الدّفاع عن المستضعفين .حين سخّر الأمير كلّ قدراته البيانية، وحججه الدّامغة لوقف الفتنةودرئها في البداية ،ثمّ المواجهة حين لم تنجع سبل اللّين مع المتظاهرين لاحقا.

لذلك ركّز في خطبته على إظهار حقيقة الدّين الإسلامي ،وتبرئته من أن يكون سببا لإثارة الفوضى أو اتخاذه أداة لتبرير الأفعال الشنيعة، فجرّد سامعه بهذا الخطاب من أيّ حجّة قد تبرّئ فعلته التي همّ بها،بل زاده أنّ ما قد يعتبره السّامع حجة في نظره إنّما هو حجّة عليه لا له،فنبّههم إلى أنّ الجهل بالشّريعة هو ما حمل بعض الناس لاستخدام الدّين سببا للنزاع والخصومة، أمّا أهل العلم والمروءة العارفين بحقيقة وجوهر الدّين، فإنهم يعرفون أنه أجلّ وأقدس من أن ترتبط برسالته السّامية أيّ نيّة في إلحاق الضّرر بالنّاس، أيّا كانت عقائدهم ومللهم ممّن يعيشون بجوار المسلمين في أوطانهم.

إنّ هذه الخطبة التي سبقت الفتنة،كانت شاهدة على ماسبق أن لاحظناه من امتلاك الأمير فهما عميقا بالدّين ورؤية استشرافية،وجّهت أفعاله في محاولة القضاء على أسبابهاوإطفاء جذوتها قبل أن تتسع وتمتد إلى دمشق، ممّا يظهر لنا أيضا نهجه القويم وطرقه الفاعلة في وأد الفتن قبل وقوعها،وتحقّق أفعاله وإنجازها على أرض الواقع،حيث لم يترك الشيوخ والوجهاء حتى أخذ منهم الوعود بإجابة طلبه،ثمّ حماية أهل الذمّة ومواجهة الغوغاء بحدّ السّيف بعد وقوع الهجوم .

وقد كان لهذه الرّسائل والخطب والجهود والمساعي، أثركبير في الحفاظ على أمن دمشق وسلامة مواطنيها، وقطع الطّريق على "المتربصيّن بدمشق من أعداء الخارج، الذين كانوا على أهبة للتدّخل في شؤون الشام الدّاخلية،معتللين بالحروب الطائفية لتحقيق مآربهم(اسكندر ، دت، صفحة 308)،ولا ضير من استحضار هذا النصّ التّاريخي لكي نوضح قيمة ماقام به الأمير وكيف انسجمت رؤيته مع أفعاله، جاء فيه: ".....أرسلت فرنسا إلى بيروت إبّان الفتنة عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال بوفود، وبعثت بقيّة الدّول مراكب حربية ومعتمدين لمراقبة ما سيفعله وزير الخارجية فؤاد باشا، وفي أثناء ذلك حصل خلاف بين هذا الوزير المذكور والجنرال الفرنسي، فبعث الجنرال رسولا إلى الأمير يخبره بأنّه قرر ضرب دمشق " من جبال الصالحيّة"، ونصح له أن يخرج منها بأهله، فاغتمّ الأمير واجتمع به في تلّ الياس" وأظهر له سوء العاقبة من ضرب المدينة فأصرّ على موقفه، فهدّده الأمير حتى عدل عن فكرته وسلّم الله دمشق)(أباظة، 1994، صفحة 18/17)` وهذه الحادثة تؤكّد أنّه على الرّغم من أنّ الفتنة قد انطلقت شرارتها بدمشق، إلّا أنّ جهود الأمير قد خفّفت من حدّتها وأسهمت في التّقليل من حجم مخاطرها وبذلك كان لخطبه ورسائله فاعلية في تغيير نظام الأشياء على الواقع، ممّا زادها رسوخا في أذهان الّذين اهتمّوا بتراث الأمير وجمعه ومقاربته، والبحث في كنوزه المعرفية والمنظومة القيمية التي وجّهت أفعاله.

3. أثر موقف الأمير في الشّعر العربي الحديث :

لقد خصّ الشّعراء والأدباء الأمير عبد القادر بمدائح مطوّلة، تحكي وتخلّد قصة المجد التي سطرّها بإنسانيته، من ذلك ما مدحه به الأديب إسكندر آغا أباكاريوس الذي ألّف كتاب"نواذر الزمان في وقائع جبل لبنان" يسرد تلك الأحداث، ويستعيد تفاصيل ماعاناه أهل الذّمة من نبذ وعنف، وكيف وقف الأمير مدافعا عنهم،ثمّ أهداه له، وافتتحه بأبيات يصف حسن خصاله، وجودة أخلاقه وكثرة أفضاله :

" لباب مولاي عبد القادر ابتدرت أبيات مدح أصابت أصدق الكلم

هذا الأمير الذي باهى الزّمان به والطّاهر الأصل والإباء والشّيم

أنعم به من أمير ماجد فطـــن قد خصّه الله بالإحسان والكرم

هذا الأمير الذي صارت فضائله في الأرض أشهر من نار على علم"(الجزائري، 1930م ، صفحة 110).

كما تأثر بهذه الحادثة الأديب نقولا أفندي النّقاش البيروتي فامتدح الأمير على نبله وسموّ روحه، في رائيته المطوّلة التي ساقها على طريقة أبي نواس،مرغّبا الشّعراء ليحذو حذوه في مدح الأمير بما له من مكارم ومناقب تغنيهم عن التشبّب بالنّساء :

دع عنك تشبيبا بوصف محاجر

ودع التغزّل في ظبا وجـــــآذر

وقل السّلام على ربوع غيثهـــــا

فضل الأمير الشّهم عبد القـادر

هذا الأمير الذي صارت فضائلــه

في الأرض أشهر من نار على علم

(الجزائري، 1930م ، صفحة 111/110)

وأهدى إليه الأديب رزق الله أفندي حسّون ديوانه المسمّى "النّفثات "وكتب له في ذلك :

أمولاي عبد القادر السيّد الذي
وقانا لوجه الله شانيك أبتر
كتابي وقد أهديته تحفة إلى
علاك ليحظى في الورى حين يشهر
وأضحى جميل الشّعر فيه الثّنا على
مكارمك الغرّا مدى الدّهر تشكر
(الجزائري، 1930م ، صفحة 112)

هذه نماذج شعرية أوردناها لندلّل بها على مدى تفاعل الشّعراء مع موقف الأمير عبد القادر من الفتنة ،وقد انتخبنا من بينها قصيدة للشّاعر أمين الجندي للدّراسة والتّحليل .

4.قصيدة الجندي/قراءة في العلاقات النصّية: -

اخترنا مقاربة قصيدة أمين الجندي- في تعالقها مع بعض القصائد الشّعرية والسيرة والتّاريخ _ من بين القصائد التي ذكرناها؛لأنّ المقام لا يتّسع لمقاربتها جميعا،ولأنّ جميع القصائد التي ذكرنا مؤتلفة في معانيها مختلفة في لفظها مع القصيدة المنتخبة،بما أنّ موضوعها جميعا واحد هو الإشادة بالأمير والثناء على ما قام به .

وقد مدح فيها صاحبها الأمير، وأثنى على موقفه، وعدّد فيها شمائله، وخصاله الحميدة وأفعاله الخيّرة،فضلا عن نسبه الشريف،فهي إذا ملحمة خلّد فيها الشّاعر تفاصيل الحادثة، وذكر دوافع الأمير لإنقاذ النّصارىثمّإعجاب العالم بهذه الشّخصية المتفرّدة، فبدأها بالمدح مشبّها الأمير على طريقة القدماء بالبدر في سموّه وعزّه، الذي عمّ نوره كلّ الأكوان،غير متحيّز ولا مبعد لأحد مهما كان شأنه،ففي كلّ محلّ يحلّ به يجلب الخير والمحبّة قائلا:

إِلَيْكَ انتهى المَجْدُ الرَّفِيعُ المُؤَثَّلُ
وَعَنْكَ أَحَاديثُ المَكَارِمِ تُنْقَلُ
تفرّدت في الآفَاقِ بالسّؤدُدِ الذي
على فضْلِهِ بَيْنَ الأَنَامِ المعوَّلُ
سموتَ سُمُوَّ البدرِ في برج عِزِّهِ
ونورُك للأكوانِ مولاي يَشْمُلُ

ثمّ انعطف للحديث عن نسبه الشّريف الذي امتدّ لبيت النبوّة ليجمع بذلك شرف الإمارة والعلم إلى شرف النبوّة فازداد شرفا على شرف يقول:

أَلَسْتَ ابن سُلْطَانِ الرّجالِ وَمَنْ لَهُ
على كُلِّ قُطْبٍ في الوُجُود التفضُّلُ
أَمَا أَنْتَ من آل النبيّ كذُرّةٍ
تجلُّ فلا يجري عَلَيْهَا التَمثُّلُ

تستحضر الأبيات ما أكّدته كتب السّيرة التي تتبّعت نسب الأمير،وانتهت به إلى آل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حيث جاء فيها أنّه:"عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار، بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر أحمد المشهور بابن خدّة -وهي مرضعته- ابن محمد بن عبد القويّ بن عليّ بن أحمد، بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد، بن بشار بن محمد بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب بن عبد القوي، بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر، بن عبد

الله المحض، بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود، محمد رسول الله ﷺ وشرف وكرم وعظم."(الأمير عبد القادر، 2004، صفحة 141)، بالإضافة إلى هذا النسبالشّريف الذي يعتزّ به ، تميّز الأمير بعلمه وببطولاته في الجهاد ضدّ المحتلّ، وعرف بالبراعة في فنون القتال والتّخطيط، عدا عن تبحّره في علوم الدّين؛ كالفقه والحديث وعلوم اللّغة والأدب والشعر، وهي سمات لا تجتمع في رجل إلّا عدّ نبيلا ، فكيف واجتماعها مع نسبه الشّريف الذي ازداد به شرفا وازدادبه سؤددا وهيبة،والقصيدة تأكيد لهذه المعاني التي وردت أيضا في قصيدة للعلاّمة محمود الحمزاوي مفتي دمشق وهي قصيدة طويلة مطلعها،

ابْنُ الإمامِ المثنّى فَضْلُهُ حَسَنٌ
مِنْ جَمعِ إحْسَانِهِ مَا لَسْتُ أَكْتُبُهُ
وَ هُوَ ابْنُ سِبْطِ الرَّسولِ المُنْتَقَى حَسَنُ
مَنْ كَانَ سَيِّدَهُ المُــخْتَارُ نَاسِبُهُ
وهو ابنُ فاطمَةَ الزّهراء سيّدةُ النـــــــ
ـّساء طــرًّا كمَا الأخبارُ تعربُهُ

وَهِيَ ابْنَةُ الحَاتِمِ الهَادِي مُحَمَدُنًا
مِنْ شَرَّفَ السِّلْكَ في الأسْبَابِ مَوْكِبُهُ.(الجزائري، 1930م ، صفحة 299/298)

ولعلّ استحضار الشّاعر لهذا النّسب؛ هو تأكيد على صحّة المنظومة القيمية التي استمدّ منها أفعاله ومواقفه، وهي الإسلام، في نصرته للمظلومين ودفع الظّلم وإعلاء القيم الإنسانية الخالدة التي يتفق على استحسانها جميع الناس، كالعدل والحرّية ومحبّة الخير للآخرين، وقد كان جدّه النبيّ الكريم مناصرا للحق والمظلومين قبل ومن بعد البعثة، حين اختار أن ينظمّ إلى حلف الفضول في الجاهلية،ورضي أن ينظمّ إليه "لو دعي في الإسلام ".

ثمّ ينتقل الشّاعر إلى الثّناء على صنيعه المحمود،في نصرته للمعذّبين،مستحضرا تلك الوقائع الأليمة ودوره في التّخفيف من أوجاعهم و مآسيهم حين قال:

أمَا أنت كشّاف الكروب عن الورى
ومنجدهم إن حلَّ خطبٌ ومعضِلُ
حِمَاكَ غدا للنّاسِ آية نعمةٍ
فما عَنْهُ للعافين يوماً تنقلُ

والشّاعريؤشّر على حادثة الستّين وتفاصيل ماحدث في تلك الأيّام،والقصيدة بهذا ملحمة تاريخية تخلّد بطولة الأمير الذي أشفق على النّاس وأصبحت حماه ملاذا للمظلومين والمكروبين، حيث تناصّت الأبيات معما جاء في الكتب التي عنيت بسيرته ، وعرضت للواقعة ،والّتي أكّدت "أنّ عدد الذين أنقذهم الأمير من القتل والعذاب ممّن التجأوا إلى داره كبير جدّا بلغ نحو من خمسة عشر ألف شخص،منهم القناصل وأعيان النّصارى والرّهبان والرّاهبات، ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم إلى قلعة المدينة، كما احتمى بحي السويقة وبخان المغاربة"(أباظة، 1994، صفحة 17).

وهناك نصوص كثيرة تعالق معها النصّ الشّعري الذي نحن بصدد مقاربته، وأعاد بناء مداليلها كما هي على اختلاف الخصائص الفنية لكلّ نوع،وهي نصوص يشهد فيها أصحابها ويشيدون بمواقف الأمير الجليلة ودوره الفاعل في إنقاذ النّصارى ودواعيه من الشفقة والمروءة والانتصار للحق من ذلك نصّ قدّم به صاحب كتاب نواذر الزّمان –كتابه الذي أهداه للأمير تعبيرا عن الإعجاب بشهامته وإنسانيته، جاء فيه " وكان سعادة الهمام الأكرم والسيّد الماجد الأفخم، الفائز من العلوم بأعلى

المراتب والمرتقى في الشرف إلى أسنى المناصب، ذو الفضل الباهر والأصل الطّاهر الأمير عبد القادر، لمّا رأى تلك الأهوال وما وقع في المدينة من الاختلال والبوار والنّكال، أخذته الشفقة والحميّة ودعته شيمته الأبية إلى إغاثة الطائفة النّصرانية وتخليصها من هذه البليّة"(اسكندر ، دت، صفحة 256).

وجاء في السّيرة الذّاتية التي كتبها شارل هنري تشرشل عن حياة الأمير وبإملاء منه:"...لقد بقي الأمير عدّة أيّام ليلا ونهارا يحرس النصارى المذعورين، الذين أنقذهم والذين تواصل وفودهم عليه يوميا، وكان يفترش زربية عند مدخل الباب فإذا غلبه النّعاس استرق لحظات قليلة من الرّاحة، ولم يترك حراستهم يوماً لأنّه كان يشعر أن حضوره الشخصي كان ضروريا لضمان الأمن للجميع"(شارل ، 1974، صفحة 286/285).

تتّفق الدّلالات المتضمّنة في البنيتين النصّيتين مع ما جاء في النصّ الشّعري إذ تواضعت جميعها على تأكيد موقف الأمير الإنساني وشجاعته، فقد أعادت سرد الحادثة كشاهدعلى تفاصيلها،كونها جميعا كتبت في زمن قريب من الحادثة أي في حياة الأمير، وإنّما هذا التّشابه بينها نابع من كونها جميعا عبّرت بصدق عن تلك الملحمة الأميرية ولكن بأساليب فنّية مختلفة لاختلاف الوسائط التّعبيرية الحاملة لهذه الدّلالة،بل واختلاف الحقل المعرفي لبعض منها(سيرة ذاتية /تاريخ بأسلوب يقترب من المقامة /نص شعري)

إذ تقاطعت والتقتجميعها في وصف تلك اللّحظات التي لم يفتر فيها الأمير عن نصرة المنكوبين وإنقاذهم من القتل، حين كان "يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على من هم في حماه، فإذا غلب عليه النّعاس أسند رأسه إلى فوهتها قليلا وغفا"(أباظة، 1994، صفحة 17).

ثمّ يمضي الشّاعر في وصف نقاء مرجعيّته،وصفاء سريرته التي نبعت منها هذه الأفعال فامتدحه قائلا:

ومورِدُك السّامي صفا عن كدورة
فمِنْهُ ذوو الآمال بالبِشْرِ تنهلُ
ظَهَرْتَ بِأَوْصَافِ الكَمَالِ وَإِنَّما
لدَيكَ انطوَى ما بَعْضُهُ اللُبُّ يذهلُ
ومن ظنّ يستوفي المديح أو الثّنَا
عَلَيْكَ إذاً عند التأمُّلِ يخجَلُ
وأبرزت من كنز العلوم دقائقاً
يعزّ إليها عن سواك التوصّل

يثني الشّاعر على الأمير ويشيد بنقاء سريرته، وكماله الإنساني وحكمته،وعقله المستنير الذي مكّنه من فهم جوهر وحقيقة الدّين الإسلامي الحنيف ، الذي بيّن علاقة المسلم بغير المسلم من أهل الذمّة. هذه المعاني ألفيناها في قصيدة للأمير في معرض فخره بانتصاراته -على عادة الشّعراء القدامى- في معاركه وتبحّره في علوم الدّين والاعتزاز بمرجعيته الدّينية،وصحّة منظومته القيمية يقول :

فإن شئت علما تَلْقَى خير عالِم
وفِي الرّوعِ أَخْبَارِي .غدت .توهن القوى
لَنَا سفن بَحْرِ الحديثِ بِها جرى
وخاضت، فَطَابَ الوِرْدُ، ممّن بها ارتوى

وإن رمت فِقْهَ الأَصبحِيّ فعج على

مجالـــــس، تشهد لداء العنـــــا دَوَا

(الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 33/32)

تتّفق البنيتين النصّيتين لأمين الجندي والأمير على إبراز المرجعية الدّينية ودورها في توجيه أفعاله، ليتأكّد لنا في كلّ مرة أن فهم الدّين فهما صحيحا من شأنه أن يمدّ العالم بنموذج إنساني متحضّر، راق،لا يقبل الذلّ والمهانة، ويرفض الظّلم والطّغيان،همّه تعمير الأرض، وإعلاء كلمة الحقّ ونصرة المظلوم، ورفض كل ما من شأنه يتهدّد الإنسان مسلما كان وغير المسلم.

ثم ينعطف الشّاعر إلى عدّ مناقب الأمير التي لا تحصى، فيستحضر مرحلة الجهاد التي كان للأمير فيها صولات مع العدوّ ،وكأنّه يلحق ضمنيا ماضيه بحاضره،ليؤكّد استمرارية الفعل البطولي من رفع للظّلم ودفع للضّرر عن المقهورين وإن اختلفت الظّروف فالفاعل واحد والثّوابت لا تتغيّر :

حفظت بلادا كنْت فيها مملكاً
بعزمك دهراً فيه ذو الحزم يحللُ
وحاربت قومّاً أهل بأسٍ وشدّة
لهم بين شجعان الخليقة منزِلُ
وكنت عليهم ظَاهِراً في مَوَاقِفٍ
بِها تقِفُ الأَفْكَارُ عجزاً وتخيُّلُ
أَقَرَّ بِذاَ خصْمٌ هَشمْت ذِراعَهُ
وَهَذا هُوَ الفَضْلُ الّذي لَيْسَ يُجْهَلُ

(الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 54)

إنّ النصّ الشّعري يستحضر بنيات نصّية كثيرة غائبة، تقاطعت في سردها بطولات الأمير في الجزائر، ولعلّ قصيدة للأمير عبد القادر في الفخر هي أكثر النّصوص قربا من هذا المعنى،وفيها يحدّثنا الأمير عن أمجاده في مقارعة العدوّ ،يقول الأمير يصف معركة النّطاح التي قضى فيها شقيقه وهزم فيها فرنسا :

ونَحْنُ سَقَيْنَا البَيضَ في كُلِّ مَعْرِكٍ
دِمَاءَ العِدَا، والسُّمْرُ أَسْعَرَتِ الجَوَى
أَلَمْ تَر في خَنْقِ النِّطَاحِ نِطَاحَنَا
غَداةَ التَقَينَا كَمْ شُجَاعٍ لَكُمْ لَوى؟
وَكَمْ هَامة ذَاكَ النَّهارِ قَدَدْتُهَا
بِحدِّ حُسَامي، والقنَا طَعْنُهُ شوى
وأَشْقَرَ تَحتِي كَلمتهُ رِمَاحُهُمْ
كَمانٍ وَلَمْ يَشْكُ الجَوَى بَلْ وَ مَا التَوى
بِيَوْمٍ قَضَى نَحْبًا أَخِي فارتَقَى إِلى
جِنَانٍ لَهُ، فِيهَا نَبِيُّ الرِّضَا أَوَى
فَمَأ ارْتَدَ مِنْ وَقْعِ السِّهامِ عِنَانُه
إِلَى أَنْ أَتَاهُ الفَوْزُ رَاغم مِنْ غَوَى
وَمِنْ بَيْنِهِمْ حَمَلْتُهُ حِينَ قَدْ قَضَى

وَكَمْ مِنْ رَمْيَةٍ كَالنَجْمِ مِنْ أُفُقِهِ هَوَى

(الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 54).

وأمّا المواقف التي ظهر فيها فضل الأمير على العدوّ فاعترف له بها، فقد أراد الجندي أن يخبرنا عن الأمير إنسانا قبل كلّ شيء، وأنّه محاربشريف مع خصومه -ليس وحسب في ميدان المعارك -بل وخارجها وهنا يحيلنا النص على مواقفه الإنسانية الكثيرة خاصة مع الأسرى في مرحلة الجهاد ، دفعت بالغرب للاعتراف بتحضّر الأمير، يقول هنري تشرشل محدّثا عن أخلاقه في جهاده وحمايته حقوق الأسرى:" ...إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها عبد القادر نحو الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه وأن يتمسحوا بهما لانحطاطهم في المعاملة."(شارل ، 1974، صفحة 202/201)،وهناك نصوص كثيرة من سيرة الأمير أكّدتها المصادر التّاريخية،تؤكّد جميعا مواقف لا تحصى للأمير تنسجم مع ما قاله الشّاعر، وحوادث تؤكّد أنّ الأمير كان متواضعاً رحيماً مع أعدائه الذين وقعوا في أسره لا يستضعفهم ولا يشمت بهم، من ذلك مثلا هذا النصّ الذي ورد في سيرته جاء فيه " أن فرقة فرنسية ألقت سلاحها من تلقاء نفسها، دون إطلاق رصاصة واحدة في عين تيموشنت، وكان عدد الأسرى يبلغ 600 شخص وكانوا جميعاً قد أحضروا أمامه، فعزاهم ببعض الكلمات المواسية على نكبتهم وقال لهم:" لا تيأسوا أبدا من المستقبل، فلن يحدث لكم مضرة، إن مشيئة الله قد قررت أن تسقطوا في يدي، والله قادر على أن يحكم بتحريركم."(شارل ، 1974، صفحة 229).

إنّه موقف نادر الحدوث عند الغرب أن يواسي العدوّ أعداءه،أمّا الأمير فقد دعاهم إلى الثبات والإيمان بأن مصيرهم بيد الله لا بيد المسلمين، فعلا ليس أمضى من الإيمان _في مثل هذه المواقف_ باعثاً على الأمل ومثبتاً للقلوب ومخففاً وطأة الصدمة والخوف من المجهول وظلام المستقبل،ومنذ هذه الحادثة أصبح للأسرى الفرنسيين ولاء خاصّ للأمير، وقد ظهرت نتائج معاملته الطيبة لهم في حادثة غريبة أوردها برونو إيتين في كتابه الذي يدخل ضمن السّيرة الغيرية عن حياة الأمير جاء فيه:" كان الأمير قد أطلق جماعة أسرى فرنسيين بعد أن عاملهم معاملة حسنة جدّاً، ولمّا عادوا إلى فرقهم و التحقوا بجيشهم، سيَّرتهم فرنسا راغمين إلى قتال الأمير، على اعتبار أنّهم أعرف به من سواهم، وباستطاعتهم أن يكشفوا عنه في المعركة ويباغتوه بالقتل أو الأسر، ولكنهم حينما رأوا الأمير سقط عن فرسه وهو يحاول الدفاع عن جثة ابن أخيه الشهيد، ريثما يحمله المجاهدون إلى الخطوط الخلفية، وحينما رأوا أنّ رفاقهم من الجنود الفرنسيين الآخرين يهاجمونه بشدة، أحدق به هؤلاء الأسرى الطلقاء كالحلقة ودافعوا عنه وحموه ريثما جيء له بفرس فركبه وأتمّ القتال وربح المعركة.(إيتين، 1997، صفحة 150)(الأمير عبد القادر، 1960، صفحة 33).

تؤكّد هذه النّصوص التّي وردت في سيرة الأمير لهنري تشرشل، وبرونو إيتن ما جاء في النصّ الشّعري بل القصيدة هي إعادة بناء مداليل البنيات النصية السّابقة كما هي، وقد استحضرها ليؤكّد لنا أنّ ما قام به الأمير في دمشق من إنقاذ النّصارى ليس موقفا غريبا عنه بل هو مبدأ من مبادئه، نابع من قناعاته المستمدّة من عقيدته حيث يستعين الشّاعر ببعض تقنيات القصّ ويشرع في سرد الأحداث قائلا:

وفي الشَّامِ لَمَا أَنْ بَغَى النَّاسُ وَاعْتدى

عَلى بَعْضِهِم بَعْضُ بما لَيْسَ تقْبَلُ

نَهَضْتَ لاخمَاد الفَسادِ بِهِمَّةٍ

تُزِيلُ الرّؤوس والأسُود تُجندِلُ

تسترجع القصيدة تلك الأحداث وتسردها كما حدثت؛ فهي ملحمة تجمل ما حدث في الواقع وتؤشّر على الأحداث _كما سبق وذكرنا_ تقرّ أنّ الأمير استخدم حدّ السّيف لوقف الفتنة، وهذا بالفعل ما حدث في الواقع وبالعودة إلى المصادر التي عنت بسيرته والتي أرّخت للحادثة نلفي إجماعها على رواية واحدة،مؤكّدين أنّه في البداية راح يعاتب المتسببين في

الفوضى ..ويسعى إلى إقناعهم ببشاعة الجريمة التي ارتكبوها ورجاهم أن يتّعظوا ويعودوا أدراجهم لكنّهم صرخوا قائلين "ماذا أنت الذي كنت أعظم ذبّاح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في بلدنا؟ ! ابتعد عنّا".

فرّد الأمير غاضبا:" إذا كنت قد ذبحت المسيحيين فإنّ ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا، وهم المسيحيّون الذين أعلنوا عليّ الحرب والذين كانوا مدّججين بالسّلاح ضدّ ديننا"(شارل ، 1974، صفحة 283).

تؤكّد جميع هذه البنيات النصّية أنّ الأمير قدعارض ووقف بشجاعة في وجه المتظاهرين، وردّ على خطابهم العنصري الذي لا يميّز بين الحق والظلم؛ بين الجهاد في سبيل الله دفاعا عن الأرض والحق في الحرية، وبين القتل المحرّم بغير حق وإلحاق الأذى بأهل الذمّة الذين أعطيت لهم مواثيق وعقود بموجب الدّين،وهذا ما يحاول النصّ الشعري قوله حين استحضر جهاده في الجزائر وقرنه بموقفه في الشّام،

لقد ردّ الأمير على خطاب الغوغاء، مؤكّدا تنزيل كل مسألة في مستواها ، فمسألة أهل الذمّة غير مسألة الاحتلال وإن تقاطع الطرفان في العقيدة، فموقف القرآن منهما مختلف على اعتبار القرآن الكريم هو مصدر التشريع وإليه يعود المسلمون في أفعالهم ومواقفهم، لقد حدّد القرآن علاقة المسلمين بالآخرين سواء كانوا نصارى أو غيرهم ، هي علاقة ترتبط ارتباطا وثيقا بالموقف الذي جمعهما والسياق الذي وجدا فيه معاً، فإذا كانوا أهل ذمة وجب مراعاة حقوقهم وإرجاع أمرهم إلى الحاكم ولا دخل للرعيّة فيما هم فيه من سلوك؛ لأنّه يوجد قانون يحكمهم ولابدّ من الاحتكام إليه،ومعلوم أنّ فتنة الشّام وقعت عندما خالف المسلمين هذا الأمر، "يرى أبكاريوس أن هياج المسلمين الدّروز كان سببه انتشار الخمّارات وتجرُّأ النصارى على إشاعة الخمر بعدما صدر قانون مساواتهم مع المسلمين ، واعتبارهم رعايا مثلهم مثل المسلمين ممّا أغضب أهل الشّام."

وموقف الأمير من أهل الذمّة واضح جلي لا يخرج عن إطار ماحدّدته الشّريعة الإسلامية ففي كتابه المقراض الحادّ والذي كان قد ألّفه وهو في السّجن في فرنسا بقصر أمبواز؛أي قبل وقوع الفتنة بسنوات كتب قائلا:"أنّ المسلم إذا قتل معاهدا غيلة أو حرابة يقتله أمير المسلمين ولا يجوز له العفو عنه "واستدلّ على ذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم :من قتل معاهدا بغير جرم لم يرح رائحة الجنّة وأنّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما"رواه البخاري (الجزائري، 1900،صفحة،199)

أما إذا كانوا غزاه مدجّجين بالسّلاح فهي مسألة مختلفة تماما ،وموقف الأمير واضح جلي فصّل الحديث عن الأمر أيضا في كتابه المقراض الحادّ (الجزائري،1900،صفحة،199ومابعدها)، وهو من الكتب القيّمة التي خلّفها حيث تحدّث فيه بإسهاب عن شعيرة الجهاد في الإسلام والحكمة من تشريعه والمبادئ التي يجب أن يتحلّى بها المسلم في جهاده.

لذلك عندما سيطرت الدّوغمائية على عقول المتظاهرين المتحجّرة،لم يقف الأمير عند حدّ مخاطبتهم بالعقل والمنطق، بل زاد أن أصدر فتوى وجهر بها، وهو يحاول ردّهم وثنيهم عمّا هم فيه من غيّ وجهل وعماء،فقال:"محرّمُ شرعاً"، وهو خطاب ينمّ عن فهم عميق وعبقرية في استنباط الأحكام الشّرعية من القرآن الكريم، وسرعة البديهة في استحضارها من أجل القضاء على العنصرية والتطرّف وما انجرّ عنهمامن عدوان طائفي أخلّ بأمن المجتمع،والأمير في ذلك كلّه يحاول إيقاظ المشاعر الإنسانية والحسّ الديني فيهم كوسيلة من الوسائل الناجعة في التّوعية والنّصح ودعوتهم لإنزال كل مسألة في منزلتها.

لكنّهم عاثوا حرقاً وقتلا وفسادا، وتغلّب الخطاب الدّوغماني في لحظات من الجهل والغضب على خطاب الدّين و العقل والنّصح.وما أورده النص من حقيقة مواجهة الأمير للغوغاء بالسلاح أكّده أباكريوس في الكتاب الذي أهداه للأمير وملخّص ما أورده : ولمّا يئس من رجوعهم عن غيّهم بدأ ينقذ من النصارى من يصل إليه وأمكنه إنقاذه، وكان لا يستثني أحدا من قناصل الدّول والرّهبان القساوسة والأعيان، فكان يبعث رجاله المغاربة جماعات ليأتوا بكلّ من عثروا عليه من النصارى ويحضرونه إلى بيته فأمّنهم وآنسهم وعزاهم على مصيبتهم ووفّر لهم الحماية(اسكندر ، دت، صفحة 256)، كلّ ما يحتاجونه وفي مساء ذلك اليوم اجتمع مع أحمد باشا وأعضاء مجلس الشّورى وسألهم المساعدة على إطفاء نار الفتنة ،وبيّن لهم بالدّليل من القرآن

الكريم، بما يلزم الحاكم لمقاتلة الهائجين الظلمة ولوكانوا من نفس الدّين، ونجح الأمير في استصدار فتوى من مفتي الولاية على ضرورة مقاتلة الغوغاء وحماية النّصارى منهم، وردعهم عن مواصلة التعدّي على أهل الذّمة، ولكن لم يمرّ وقت قصير حتى جاء رسول أحمد باشا بخبره بعدول الباشا عن اتّفاقه، فما كان من الأمير إلاّ وعقد العزم ورفع الهمم على أن يسعى بأقصى طاقة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح البريئة(النرعبي، 1860، صفحة 156).

وكان الأمير في صراعه ضدّ الظّلم مفعما بالأحاسيس الدّينية وهو يقف جنبا إلى جنب مع أهل الذمّة ضدّ من أرادوا لهم الأديّة، حرصا منه على تأكيد الأبعاد العملية لتعاليم الشّريعة الإسلامية لذلك عبّر الجندي قائلا:

حَقَنتَ دماءً حرّم الشّرعُ سَفْكَهَا

فصُنْتَ سَخيّ الطبع والمتموّل

يؤكّد الشّاعر أنّ دوافع الأمير لإنقاذ النّصارى إنّما قصد بها مرضاة الله تعالى ، فعندما رأى تلك الأهوال، وما يحدث من قتل وحرق في المدينة، وسفك للدّماء، ونهب للأموال وظلم، وشاهد ما فعله الدّروز بالنصارى أشفق على المظلومين،فأخذته الحميّة وراح ينهي وينصح مناديّا: "يا أمّة الإسلام إنّ ذلك لا يجوز في شرع ديننا اعدلوا يا أمّة محمّد"(النرعبي، 1860، صفحة 32). يقول الشّاعر مجملا لهذه المعاني :

صَنِيعُكَ هَذا ليْسَ قَدْرَهُ

وَلا أَحَدَ حقّاً لَهُ يَتَوصَّلُ

قَصَدْتَ بِه مَرْضَاة ربّكَ مُخْلِصاً

وَمَا خَابَ عبْدٌ في رضاَ الله يعملُ

وقد اعترف العالم بفضله وجميل صنعه فانهالت عليه الهدايا من كلّ دول العالم،وعن هذا يقول الجندي :

مُلُوك الوَرَى طرًّا حَبَتْكَ علائِماً

على شرف في حوزه أنت أوّلُ

كَفَى أهْلَ هذا العصْرِ عِزّاً ورِفْعَةً

وجودُكَ فيهم مَا لِذَلِكَ معدِلُ(الجزائري، 1930م ، صفحة 106/105).

تنبض هذه النصوص التي عرضناها بعاطفة الإعجاب والتمجيد،وتنبئ عن مقدار الأثر الإيجابي الذي تتركه المواقف الإنسانية عند البشر،فيبدعون نصوصا خالدة تغنّي لحنا أعاد للإنسانية إنسانيتها،وتشدو بأمجاد الأمير،الّذي حظي باعتراف وتقدير العالم،لدوره في إطفاء نار الفتنة وحماية المسيحيين ونال إكبار وإجلال الملوك والرؤساء، والعديد من دول العالم اعترافا بموقفه النبيل.جاء في سيرته التي كتبها ولده محمّد؛ رسالة من الباب العالي يخبره بتقليده الوسام الهمايوني ما ملخّصه :"..وكانت غيرتكم التي تكرّمتم بها دليلا ليس له مثيل على حميّتكم الدّينية،وخلوصكم لطرف السّلطنة السنّية فاستحقّيتم لدى الحضرة المملوكية، على وجه الجدّ والحقيقة فرط المحظوظية، والتّحسين ولذلك جعلت علامة علنية لهذا التّحسين، وبرهانا جليّا على التّوجهات السنّية بحقّ حضرتكم، فجادت عليكم بإحسان الوسام المجيدي الهمايوني من الرّتبة الأولى ...(الجزائري، 1930م ، صفحة 97/96)، ثمّ أورد الرّسائل والنّياشين التي جاءته من العالم،وق تناقلها جميع من عنوا بحياة الأمير،كالسيرة التي كتبها تشرشل عن حياة الأمير ،وهي أوّل سيرة غيرية تناولت حياة الأمير و بإملاء من الأمير نفسه (شارل ، 1974، صفحة 288/287).

إذن لقدأجمع العالم وتوحّد على استحسان والإعجاب بهذا العمل الإنساني والاعتراف بجميل الأمير، إذ ليس من السّهل أن يكظم في نفسه غيظ كلّ تلك الجراحات والعذابات-القريبة عهدمن الفتنة-تلكالتي سببها الاحتلال الذي يدين بديانة

أهل الذمّة من النّصارى، والقيام بهذا العمل البطولي الذي غدا به الأمير وحده أمّة، فصنيعه هذا قدّم به النموذج الأمثل للمسلم ،جعله رمز البطولة والشرف في حماية المقهورين والمعذّبين –على رغم كونهم مخالفين فيالدّين - ويصدق عليه بحق وصف الإنسان الكامل ومؤسس حقوق الإنسان .

.

5. خاتمة:

نخلص إلى القول أنّهتوجد نصوص من الأدب الحديث قد تفاعلت مع ما قام به الأمير حين أنقد النّصارى في الشّام ،وصوّرته كشخصية متفردة،فدلّت على أنّ مواقفه الإنسانية وعنايته بحقوق الإنسان قد فعلت فعلها في التّجربة الشّعرية التي أعقبت الحادثة كقصيدة أمين الجندي، ثمّ مالبث أن تناقلتها كتب التّاريخ وكتب السّيرة التي عنت ببطولاته وتتبّعت أفعاله ومواقفه، وسعت لتوضيح دوافع الأمير للدّفاع عن أهل الذّمة، وإيقاف الفتنة،كسيرته التي كتبها ولده محمّد بن الأمير عبد القادر، وكذا سيرته التي ألّفها شارل هنري تشرشل،وغيرها من المؤلّفات التي أكّدت إنسانية الأمير النّموذج الأمثل للإنسان المسلم الذي أدهش العالم بأفعاله البطولية،فانهالت عليه الرّسائل والنّياشين من الملوك والأمراء من كلّ أنحاء العالم، كما كانت خطاباته ورسائله دليلا على الرؤية الاستشرافية التي وسمت مواقفه ووجّهت أفعاله التي أثّرت في معاصريه، وستبقى تحفر مجراها ببطء ولكن بعمق في ذاكرتنا وفي حياة الأجيال القادمة ، وتراثا إنسانيا غنيّا لابّد من استجلائه، والاستفادة منه في واقعنا وراهننا الحضاري .

6. قائمة المراجع

1. الأمير عبد القادر. (1960). *ديوان الأمير عبد القادر تح: يحي حقّي*. دمشق: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.
2. الأمير عبد القادر. (2004). *مذكرات الأمير عبد القادر؛ سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1819 م تح: محمد الصغير بنابي ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح ألجون* (المجلد 1). الجزائر: دار الأمة.
3. أمجد أحمد الزّعبي. (1860).*الآخر في فكر الأمير عبد القادر* . نقلا عن عربيلي: شاهد عيان مذبحة سنة 1860م.
4. أوليفيه روا. (2017). *الجهاد والموت* (المجلد 1). (صالح الأشمر، المترجمون) دار السّاقي.
5. بن أبكاريوس يعقوب اسكندر . (دت). *نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم ابراهيم السّمك*. لندن: رياش الرئيس للكتب والنّشر.
6. بورنو إيتين. (1997).*الأمير عبد القادر الجزائري* (المجلد 1). (ميشيل خوري، المترجمون) بيروت ، لبنان : دار عطية للنشر.
7. تشرشل هنري شارل . (1974). *حياة الأمير*. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.
8. عبد القادر الجزائري.(1900م).المقراض الحادّ لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد :دار مكتبة الحياة .
9. محمد بن عبد القادر الجزائري. (1930م). *تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر -سيرته القلمية-* (الإصدار 2). الإسكندرية : المطبعة لتجارية خرزوري وجويش.
10. نزار أباظة. (1994).*الأمير عبد القادر العالم المجاهد* (المجلد 1). بيروت لبنان: دار الفكر المعاصر .